الحقائب

قصة بقلم مصطفى زيات

« آه يا جرحي المكابر
وطني ليس حقيبة
وانا لست مسافر
انني العاشق ، والارض حبيبة » .

محمود درويش

جيزان ٤ حزيران ١٩٦٧

أكثر من مرة أفرغ الحقيبة من كل محتوياتها ، وعاد يرتبها من جديد وأكثر من مرة فتح الحقيبة الثانية وأخذ منها شيئا ، ووضع آخر ، وأغلقها .

منذ ايام ثلاثة وهو لا عمل له الا الذهاب الى السوق ، والشراء ، وترتيب الحقائب . فلقد انتهى العام الدراسي وسيعود الى أهله ، الى امه وأبيه ، الى أخته وأخيه ... والى ابنة خالته .

الحقائب التي لم تتحرك طيلة اشهر ثمانية هي الآن في حركة دائمة ، تنتقل من فوق الخزانة الى السرير ، الى الطاولة ، وفي كل موضع من هذه المواضع ، كان يفتح احدى الحقائب ويغلقها مرات عديدة ، حيث كان يخرج — في أكثرها — أحد الشالين الابيضين اللذين وضعهما فوق الاشياء جميعا ، ويتأمله ، ويذهل عن نفسه ، فتعود كلمات قصيدة صديقه لتحرك شفتيه وتخرج من خلال ابتسامته التي لم تفارقه منذ ايام ثلاثة .

« — فمتى ارحل كالنهر اليها ؟
— دان ... دان
واراها مثلما كانت صبية ؟
— دان ... دان
— آكل الخبز ... واصفر اذا قالت وداعا ؟
— دان ... دان
— تتداني — ان بكت يوما على النهر بصمت ضفتان ؟
— دان ... دان
— أشتري مهرا ... وحلة ؟
— دان ... دان
— وعطورا للصبية ؟
— دان ... دان
— نزرع الارض سويا ؟
— دان ... دان
— آه ... هيا . » .

وكعادته — في كل مرة يصل فيها الى كلمة « هيا » — تذكر نفسه ، وكبرت ابتسامته ، وخاطب نفسه :

— لله درك يا أخي ، لله درك .

ثم وضع الشال الابيض برفق فوق السرير ، وأخرج من جيب الحقيبة الصغير ساعة اليد الصغيرة التي سيفاجيء بها اخاه الذي سينال التوجيهية هذا العام ، وسيرسله الى القاهرة ليتابع دراسته في جامعتها مع ابن عمه ، وسيؤمن له كل المصاريف .

— ألم يؤمن له أخوه الاكبر مصاريف دراسته في جامعة دمشق ؟ وسيساعده في اعداد حقائبه .

— ألم يساعده أخوه الاكبر — على الرغم من معارضة أمه — في اعداد حقائبه حينما سافر الى دمشق ؟

ولكن ترتيبه — قطعا — لن يروق لوالدته ، وستفرغ الحقائب وتعيد ترتيبها — كما فعلت بحقائبه يوما — .

ان لها طريقة خاصة في ترتيب الحقائب . فلقد رتبت حقائب أخيه حين سافر الى الكويت ليعمل ، ثم رتبت حقائب زوجة أخيه حينما لحقت بزوجها . وكذلك رتبت حقائب أخته الكبرى حينما غادرت القرية — هي وزوجها المدرس — الى الجزائر . وقد رتبت له حقائبه حينما سافر الى السعودية .

وتمنى أن ترتب لابنة خالته حقيبتها حينما تسافر معه في مطلع العام الدراسي المقبل .

أعاد الساعة الى جيب الحقيبة الصغير ، والشال الى كيسه الورقي ، ووضعه فوق محتويات الحقيبة الى جانب الشال الآخر .

وخطر بباله أن يخرج قطعة القماش التي اشتراها لامه ، وكذلك قطعة القماش لابيه ، ولكنه لم يفعل ، ثم اغلق الحقيبة .

وحينما تمدد فوق سريره ليستريح شعر بالحر ، لكنه لم يتأفف ، على الرغم من انه كان شديدا ، وكان يضجره حتى في منتصف الشتاء . واكتفى بأن مد يده وضغط زرا صغيرا مثبتا في الجدار بجانب السرير فدارت المروحة المعلقة في سقف الغرفة . ايام قليلة ويكون بين أهله ، فيرى اباه وأمه ، وأخاه وأخته ... ويرى ابنة خالته . سيكون سعيدا ، وسيكونون سعداء . وسيحاول أبوه اخفاء سعادته ، وسيعاتبه لاسرافه ، ولكن عتابه سيكون رقيقا ، سيكون أقرب الى النصائح — انه يعرف اباه جيدا — ، وسيستمع اليها ، وسيعد اباه باتباعها ، كما سيعده بارسال بطاقتين لاداء فريضة الحج ، في العام المقبل .

وتتابعت الصور والاخيلة ، وعادت كلمات قصيدة الصديق تحرك شفتيه لتخرج بهدوء ، بينما تعلقت عيناه بالحقيبتين الجاثمتين فوق بعضهما فوق الطاولة .

« — فمتى ارحل كالنهر اليها ؟
— دان ... دان

***

عمان ١ تموز ١٩٦٧

وضع الحقيبتين على الارض ، وحرك أصابع يديه عدة مرات ، ثم أخرج من جيبه منديلا أبيض وراح يمسح به العرق الغزير الذي كان ينبع من جبهته ويسير خطوطا على وجهه ووراء اذنيه وحول عنقه ، حتى بلل قميصه فالتصق بجسمه وظهرت واضحة تقاطيع جسمه النحيل ، ثم رفع رأسه الى السماء واستنشق اكبر كمية ممكنة من الهواء . اعاد المنديل الى جيبه وأخرج في الوقت نفسه البرقية التي وصلته ردا على برقيته التي أرسلها الى أخيه في الكويت وقرأ :

« كلنا بخير ... » .

طوى البرقية واعادها الى جيبه ، وأخرج من جيبه الآخر البرقية الثانية التي وردته من أخته في الجزائر وقرأ : « كلنا بخير ... » .

طواها واعادها الى جيبه ، وحرك أصابع يديه عدة مرات ، ثم حمل حقيبته ومشى ، بتثاقل ، مطاطىء الرأس ، تحت أشعة الشمس .

الحقائب في كل مكان ، على أرصفة الشوارع ، وفي مداخل

الابنية ، في المساجد ، في الكنائس ، في المستشفيات ، فوق الرؤوس ، وعلى الظهور ، وفي الايدي .

وتتابع تصادم حقيبته مع الحقائب الاخرى ، التي تحملها أيد متعبة اخرى ، لاجسام نحيلة اخرى .

واقترب من ساحة المدينة ، فتزايدت الحقائب ، وتزايد تصادمها ، وتزايد التعب والانهاك والعرق ، وهو ما زال يمشي ، مطاطىء الراس ، تحت أشعة الشمس . ثم ضاع بين مئات حاملي الحقائب ، الذين نقلوا اليه ـ قبل الامس ـ أخبار أهله ، فقالوا له :

ـ هدم القصف بيت أبيك ...

ـ ماتت اختك تحت الانقاض ...

ـ رفض أبوك أن يغادر القرية ... وهو يعيش في الغرفة الوحيدة التي نجت من القصف ...

ـ انضم اخوك الى صفوف المقاومة ...

كان مركز الانطلاق مزدحما بالحقائب وبحامليها . وضع حقيبتيه على الارض ، وحرك أصابع يديه عدة مرات ، ثم أخرج منديله ومسح به العرق الذي كان يملأ وجهه وعنقه وصدره وساعديه .

أعاد المنديل ـ بعد أن طواه ـ الى جيبه وجلس فوق الحقيبتين، مطاطىء الراس ، ينتظر .

***

دمشق ٣ آب ١٩٦٧ .

قبل أيام كان لقاؤه مع صديقه وزميله أيام الدراسة في الجامعة لقاء غريبا ، مفاجئا ، عبر الصديق فيه عن فرحة اللقاء بابتسامة صغيرة سريعة ، ثم أشعل سيجارة وسأل صديقه عن أحواله ، فاجابه :

ـ كنت بخير في السعودية ، واخي بخير في الكويت ، واختي بخير في الجزائر ، والثانية ماتت تحت الانقاض ، ورفض أبي مغادرة القرية ، وهو يعيش مع أمي في الغرفة الوحيدة التي بقيت سليمة ، وانضم اخي الى صفوف المقاومة .

لقد استطعت أن ارسل لهم بعض المال ، ولكنني لم أتمكن من رؤيتهم . فكرت في العودة الى السعودية ، أو الذهاب الى الكويت ، أو الجزائر ، لقضاء العطلة الصيفية ، ولم استطع أن أعيش وحيدا في عمان ، وها أنا الآن في دمشق .

وأشعل الصديق سيجارة أخرى .

كان الصمت يسيطر على معظم لقاءاتهما في الايام القليلة الماضية ، فقد كان يشغل نفسه بمراقبة الحقائب المنتشرة في كل مكان ، على الارصفة ، في مداخل الابنية ، في الجوامع ، في الكنائس، وفي الخيم . فوق الرؤوس ، وعلى الظهور ، وفي الايدي النحيلة للاجسام النحيلة .

بينما كان صديقه يشغل نفسه ـ كعادته حينما يفقد القدرة على التركيز ـ باحراق السجائر .

وعندما يتعبان من التجوال في شوارع المدينة وضواحيها كانا يعودان للنوم .

وكان لقاء الامس اخرس . فلقد وصله نبأ مقتل أخيه على مقربة من قريتهم .

ـ صباح الخير .

ـ صباح الخير .

ثم تناول من صديقه احدى الحقيبتين ووضعها على السرير الى جانب الحقيبة الاولى التي بدأ الصديق فتحها .

ـ اراك نهضت باكرا هذا الصباح .

اجاب وهو يخرج بعض الاشياء الضرورية من حقيبته ويضعها فوق الطاولة : ـ سأسافر .

فتساءل الصديق وهو يخرج علبة السجائر من جيبه :

ـ ولكن موعد افتتاح المدارس بعيد .

ـ لن أعود للسعودية .

فساله بعد أن أشعل سيجارته : ـ الن تعمل ؟

ـ ساعمل .

ـ أين ؟

أجاب وهو يفتح الحقيبة الثانية التي ظلت مغلقة أكثر من شهر : ـ في قريتي .

ثم أخرج من الحقيبة أحد الشالين الابيضين ولف به الاشياء القليلة التي اخرجها من الحقيبة الاولى .

وقف الصديق صامتا بعد أن أطفأ سيجارته التي لم يأخذ منها الا نفسا واحدا .

أغلق الحقيبتين وحملهما وادخلهما تحت السرير وقال مخاطبا صديقه :

ـ ساترك الحقيبتين عندك .

ظل الصديق صامتا .

صافح صديقه وعانقه ، ثم صافحه مرة ثانية ولكن بقوة أكبر ، وبكلتا يديه ، ثم حمل صرته البيضاء ، وانطلق ، على الطريق الطويل الذي يلمع تحت أشعة شمس جديدة .

حلب

مصطفى زيات

صدر حديثا :

تشريح جثة الاستعمار

تأليف غي دوبوشير
ترجمة ادوار الخراط

هذا الكتاب الجديد محاولة لتعريف الاستعمار واثبات انه ظاهرة أوروبية محض ، وهو يتلمس الصلة بين التعمير والاستعمار ، ويعقد فصلا مطولا عن التفرقة بين الاستعمار والامبريالية ، ثم يشرح كيف بسطت المسيحية ظلها على اوروبا ، وصلة ذلك بالغزوات التي كانت تتخذ من الدين قناعا لاخفاء الجوانب الاقتصادية الاساسية لظاهرة الاستعمار . ويمثل على ذلك بروح الحروب الصليبية ، في حين يثبت بالبراهين والادلة ان التوسع الاسلامي ليس بظاهرة استعمارية لا من حيث الاسس والاصول ولا من حيث التركيب والبنية .

ويتتبع الكتاب تطور ظاهرة الاستعمار عبر عصر النهضة وبدء ظهور الرأسمالية ويقوم بتحليل عميق للصلات بين الرق وبدء عصر الراسمالية وظهور الطبقات العاملة والتوسع الرأسمالي في آسيا وافريقيا ، وينتهي بتحليل سقوط ظاهرة الاستعمار .

منشورات دار الآداب